﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبأ: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استكمالُ الآيةِ السّابقةِ بيانًا وإيضاحًا بما يُذهب سوءَ الفهمِ ويُلغي باطلَ الوهم

بعد أن أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ في الآية السابقة أنْ يُبيِّن للنّاس أنَّ بسْطَ الرِّزق وقَدْرَه راجعانِ إلى مشيئةِ الله تعالى وحكمته، ولا علاقةَ له بالإيمان والكفرِ أو الرِّضا والسُّخط؛ ناسب أن تأتيَ هذه الآيةُ لتزيدَ المعنى وضوحًا ببيانها أنَّ كثرةَ الأموال والأولاد ليس مِن شأنها أنْ تقرِّبَ إلى الله تعالى؛ لأنَّها ليست دليلَ محبَّتِهِ لهم، ولا برهانَ رضاه عنهم، وأنَّ الذي يقرِّبُهم منه، ويضاعفُ لهم الأجرَ والمثوبةَ، ويدخلُهم جنَّتَه هو الإيمانُ والعملُ الصالح[1]، فهذه الآيةُ استكمالٌ لما بدأتْهُ الآية السّابقة في تثبيتِ أركانِ المعتقدِ الصَّحيح في الرِّزق بسطًا وقدرًا، بإيضاحِ العبارةِ، وإبانة المعنى المقصود.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُقَرِّبُكُمۡ﴾: (قرب) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ البُعدِ، يُقالُ: قَرُبَ يَقْرُبُ قُرْبًا، أي: دنا[2]، ويُستعمل في المكان والزَّمان والنِّسبة والحُظوة والرِّعاية والقدرةِ، ومِنهُ في الحُظوة قولُهُ تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ [المطففين: 28]، وقولُهُ: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨﴾ [الواقعة: 88]، وقوله: ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف: 114]، والمقصودُ في الآيةِ: هو نفيُ تقريبِ العبدِ مِنَ اللّه تعالى بسببِ الأموالِ والأولاد.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 298.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قرب).

2) ﴿زُلْفَىٰٓ﴾: (زلف) يَدُلُّ عَلى اندِفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شَيءٍ، يُقالُ مِنْ ذَلِكَ: ازدَلَفَ الرَّجُلُ: تَقَدَّمَ، وسُمّيَت مُزدَلِفَةَ بِمَكَّةَ؛ لاقترابِ النّاسِ إلى مِنًى بَعْدَ الإفاضَةِ مِن عَرَفاتٍ، ويقالُ: لِفُلانٍ عِنْدَ فُلانٍ زُلفى، أَي: قُربَى، قالَ اللّهُ جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: 25][1]، والزُّلْفى: الحُظوة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّـهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37] أي: إزلافًا، والمعنى: تقريبًا سَلِسًا سهلًا[2].

3) ﴿ٱلضِّعْفِ﴾: (ضعف) يَدُلُّ عَلى أَن يُزادَ الشَّيءُ مِثْلَهُ، ومنه: أَضعَفْتُ الشَّيءَ إضعافًا، وضَعَّفْتُهُ تَضعيفًا، وضاعَفْتُهُ مُضاعَفَةً، وهوَ أَنْ يُزادَ عَلَى أصلِ الشَّيءِ، فَيُجعَلَ مِثلَينِ أَو أَكثَر[3]، قال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء40]، وقال أيضًا: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ الفعل: (يضاعف) للفاعل والمفعول، و(ضِعف) بالكسرِ ومثناها وجمعها (أضعاف)، كلُّ ذلك مِن زيادة مثلِ الشَّيء أو أمثالِه عليه[4].

4) ﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾: (غرف) أصلٌ صَحيحٌ، منه الغُرفَةُ، وهي: العلّيَّة مِنَ البِناء، والجمع غُرَف وغُرُفات بضمِّ الرّاء وفتحها وسكونها[5]، وسَمّى اللّهُ منازل الجنَّة غُرَفًا، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الفرقان: 75]، وقال أيضًا: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: 58]، وقال: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[6]، والمقصودُ: منازلُهم في الجنَّة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ للمترفين بصفةٍ خاصَّة وللنّاس بصفةٍ عامَّةٍ الطريقَ الوحيدَ الَّذي يُقَرِّبُ مِنَ اللّهِ تعالى، ويؤهِّل لنيل رضوانِه، والفوز بجنانِه، فتخاطبُهم بما معناهُ: ليس الأمرُ كما زعمْتُم - أيُّها المترفون - مِن أنَّ كثرةَ الأموالِ والأولادِ ستُنْجيكم مِنَ العذابِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (زلف).
(2) الراغب، مفردات القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زلف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ضعف).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضعف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (غرف).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (غرف).

ولكنَّ الحقَّ والصدقَ أنَّ الذي يُنجيكم مِن ذلك، ويقرِّبكم مِنَ اللّه، هو الإيمانُ والعملُ الصالحُ، فالذين آمنوا، وعملوا الصّالحات، لهم عندَ اللّهِ تعالى الجزاءُ المُضاعفُ، وهم في غُرُفات الجنّاتِ آمنون مطمئنّون[1].

القربُ مِنَ الله تعالى منحصرٌ بالإيمانِ بهِ وبعملِ الصّالحات

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ومعناها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ تحتمل أنْ تكونَ لعطفِ ما بعدَها على قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾، فَيَكونَ كَلامًا موَجَّهًا مِنَ اللّهِ تَعالى إلى الَّذينَ قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾، وتحتمل أن تَكونَ عَطْفًا عَلى جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فَيَكونَ مِمّا أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بِأَن يَقولَهُ لَهُم، ويُبَلِّغَهُ عَنِ اللّهِ تَعالى[2]، ويمكنُ أن تكونَ الواو استئنافيَّةً، والكلامُ بعدها مستأنفٌ من جهتهِ عزَّ وعلا، خوطِبَ به النّاسُ بطريقِ التَّلوينِ والالتفاتِ؛ مبالغةً في تحقيقِ الحقِّ وتقريرِ ما سبق[3].

تحتملُ الواوُ العطفَ على وجهين والاستئناف

دلالةُ النَّفي بأداة (ما):

آثرَ النَّظمُ الكريم النَّفيَ بأداةِ (ما) في قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾؛ لأنَّ من خصائصها نفيَ الجُمَلِ الاسميَّة والفعليَّة، وأنَّها آكدُ في النَّفي مِن (ليس)، وأوسعُ استعمالًا منها؛ لاختصاصِ (ليس) بنفي الجملِ الاسميَّة فقط، والنَّفي بـ (ما) أنسبُ هنا؛ لأنَّها تفيدُ بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ نفيَ العمومِ بكون الأموالِ والأولاد سببًا في قربِ المترفين وغيرِهم مِنَ الله نفيًا قاطعًا لا حدودَ لَهُ.

نفيُ عمومِ ما يتخيَّله الذِّهنُ أرسخُ في تثبيت ما يُقرُّه الشَّرع

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 298.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 215.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.

فائدةُ استعمال مفردةِ الأموال جمعًا:

الشُّعورُ بالقوَّة والاستغناء مِن أسباب الكفرِ والطُّغيان

جاء استعمالُ لفظِ الأموالِ جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾، وهي ما يُتَمَوَّلُ به لتحقيق المنافع، ويُستغنى عنِ الآخرين بسببِهِ؛ ليوضِّح للنّاسِ مِمَّن يستغنونَ بأموالِهم عنِ الإيمان باللّه واتِّباع الرَّسول، ويظنّون أنَّهم لن يُعذَّبوا في الآخرة قياسًا على امتلاكِهم المالَ في الدُّنيا، أنَّ هذه الأموال - على كثرتها وتَنَوُّعِها - قيمتُها ليست حقيقيَّة، فلا تُقَرِّبُ إلى اللّهِ، ولا تُنجي من عذابِهِ، ولا اعتِبارَ بالتَّعَزُّزِ بها[1].

نكتةُ إضافةِ الأموال إلى الضَّمير:

خطابُ النَّفس المباشر أقوى في استحضار المعاني وتقييمِها

في إضافة الأموالِ إلى ضمير المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ دلالةٌ على امتلاكها، والقدرةِ على تصريفِها في تحقيقِ ما يستَغْنون بهِ، وينعَمون بسببِهِ، كما أنَّ الإضافةَ تُثير المترفينَ وغيرهم إلى استحضار صورِ الأموالِ الَّتي يمتلكونها، واستعراض أنواعها، ليتأكَّدوا من هوانِها، وانعدام جدواها في القربِ مِنَ اللّه، والإنجاءِ من عذابِهِ، على الرَّغم من أنَّهم يرونها عظيمةً، وذاتَ أثرٍ كبيرٍ في دنياهم وآخرتهم، ففي الإضافة خطابٌ مباشر لكلِّ قارئٍ ليستحضرَ ما عندَهُ مِن قوَّةٍ ماليَّة، فيضَعَها في معيارِها الصَّحيح.

نوعُ الواوِ ومعناها:

لا شيءَ ينفَعُ العبدَ في الآخرة إلّا عملُهُ الصّالح

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ على: ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ بالواوِ الَّتي تفيد الاشتراكَ في الحُكم؛ لبيان أنَّ أولادَ المترفين مثلُ أموالهم في انعدام الجدوى في الآخرةِ، وأنَّهم لن يكونوا سببًا في الحُظوةِ عندَ اللّهِ تعالى، والإنجاء مِن عذابِ يومِ القيامَةِ.

نكتةُ تكرار النَّفي:

جيءَ بحرفِ (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾، وهو حرفُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 209.

نفْيٍ يدلُّ بمعناهُ ومبناهُ على نفي أنْ يكونَ للأولاد أدنى فائدةٍ في تحقيق القُرب مِنَ اللهِ والنَّجاة مِن عذابِهِ، نفيًا قاطعًا لا حدودَ له، وجيءَ بِهِ بَعْدَ العاطِفِ مع إمكانِ الاكتفاء بـ (ما)؛ لِتَأْكيدِ تَسَلُّطِ النَّفْيِ عَلى كِلا المَذكورَين؛ ليَكونَ كُلُّ واحِدٍ مَقْصودًا بِنَفْيِ كَوْنِهِ مِمّا يُقَرِّبُ إلى اللهِ ومُلْتَفَتًا إلَيْهِ[1].

تأكيدُ تسلُّطِ النَّفي على المذكورين

فائدةُ اختيارِ لفظ (الأولاد) دون (الأبناء):

جاء إطلاقُ الأولادِ دونَ الأبناءِ ليشملَ الذُّكورَ والإناثَ، فيعمَّ الجميع، ولو ذكرَ الأبناءَ؛ لاقتصر على الذكورِ، والمرادُ نفْيُ ذلك عن الجميعِ، ويدخل فيهم ما كانَ مِن أصلابِهم.

نكتةُ جمعِ الأولاد والإضافة للضَّمير:

في التَّعبير بلفظِ ﴿أَوْلَٰدُكُم﴾ جمعًا إشارةٌ إلى كثرةِ الأولاد وتنوُّعِهم، وفي الإضافة إلى ضميرِ المُخاطَبينَ دلالةٌ على شدَّة القربِ وقوَّةِ الالتصاق، والمعنى: إنَّ أولادَكم - مع كثرتِهم والتصاقِهم بكم - ليسوا بالجماعة الَّتي تقرِّبُكُم مِنَ اللهِ، وتُنْجيكم مِن عِقابِه[2]، والإضافةُ بمعنى اللام، أي: أولادٌ هم لكم؛ للدَّلالة على الانتسابِ، أو (من) أي: أولادٌ مِنكم ومِن أصلابِكم، فمهما تعلَّقْتُم بهم، وتعلَّقوا بِكم، فإنَّ ذلك لا ينفعُ ما لم يكن على ميزانِ التَّقوى.

انتسابُ الأولادِ وتعلُّقهم بالآباء لن ينفعَهم شيئًا عند الله تعالى

نوعُ الباءِ ومعناها:

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ﴾ لتوكيدِ النَّفي، والتَّعبيرُ بها يدلُّ على نفْي كونِ الأموالِ والأولاد مستعانًا بها في القُربِ مِنَ اللهِ تعالى، والفوزِ والفلاحِ في الآخرة.

براعةُ استعمالِ الاسم الموصولِ المؤنَّث:

لَمّا كانَتِ الأَموالُ والأَولادُ جَمعَي تَكسيرٍ؛ عومِلا مُعامَلَةَ المُفرَدِ

لا نفعَ يُرجى مِنَ الأموالِ والأولاد مع الكفرِ باللهِ تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 215.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 515.

المُؤَنَّث، فَجيءَ بِخَبَرِهما اسم مَوصولٍ لِلمُفرد المُؤَنَّث، عَلى تَأويلِ جَماعَةِ الأَموالِ وجَماعَةِ الأولادِ، ولَم يُلتَفَت إلى تَغَلُّبِ الأَولادِ عَلى الأموالِ، فَيُخبَرُ عَنهُما مَعًا بـ (الَّذين) ونَحوِهِ[1]؛ لأنَّ الجمعَ المكسَّرَ عقلاؤهُ وغير عقلائِهِ سواءٌ في حكمِ التَّأنيث[2].

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ وصوغها مضارعًا:

تأبيدُ نفي نفعِ الأموال والأولاد لأصحابِها في فضيلةِ التَّقريب

التَّعبيرُ بفعلِ القُربِ الموضوع لِما يُضادُّ البُعدَ في قوله تعالى: ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾، ليس مقصودًا به القربُ المكانيُّ، ولكنَّه كنايةٌ عنِ التشريفِ والكرامة[3]، وفيه دلالةٌ على أنَّ الأموالَ والأولاد التي يَعتَقِدُ أصحابُها أنَّها دليلُ مكانتهم عند اللهِ تعالى ليست كذلك، وأنَّ الحقيقةَ التي لا بدَّ أنْ يعلموها أنَّها لن تكونَ سببًا في الحُظوة والمنزلةِ عند ربِّ العالمين بأيِّ حالٍ من الأحوال، وأوثرَ التَّعبيرُ بالمضارع الذي يفيدُ التَّجدُّد؛ للدَّلالة على أنَّها لن تكونَ سببًا في ذلك على سبيلِ التَّأبيد.

تعيينُ مرجع ضمائر الخطاب:

التَّعبيرُ بأسلوب الخطابِ يجعلُ الكلامَ شاملًا الناسَ في كلِّ زمان ومكان

إذا كانت جُملَةُ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ مَعطوفَةً عَلَى قَولِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾، فيكون كلامًا موجَّهًا من جانبِ اللهِ تعالى، وضَمائِرِ الخِطابِ تَكون موَجَّهَةً إلى الَّذينَ قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾، وإذا كانت عَطفًا عَلى جُمْلَة: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ فيكونُ ممّا أُمِرَ الرَّسول ﷺ بأن يقولَهُ لهم، ويبلِّغَهُ عنِ اللهِ تعالى، وتكون ضَمائِرُ الخِطابِ عائِدَةً إلَى الَّذينَ قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم﴾ اعتراضًا بين جملة: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ وجملة: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 215.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 215.

وتكون ضمائرُ الخطابِ موجَّهةً إلى جميع النّاس المخاطَبين بالقرآنِ مِن مؤمنين وكافرين[1]، وأيًّا كان مرجعُ الضَّمائر؛ فالتَّعبيرُ بأسلوب الخِطابِ يجعل الكلامَ موجَّهًا إلى الكافرين برسولِ الله ﷺ، وإلى النّاسِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ تحذيرًا مِنْ أنْ يفهموا فهْمَ المُترَفين، وينهجوا نهْجَهم، ويقولوا قولَهم.

نكتةُ تعديةِ (تُقرِّب) إلى ضمير المخاطَبين:

نُصْحُ المتفاخرين بالأموالِ والأولاد وبيانُ مآلِ تفاخرِهم

عُدّي فِعلُ التَّقريبِ إلى ضميرِ المُخاطَبين في قولِه تعالى: ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾؛ لأنَّهم المخصوصونَ بالبيان، المقصودونَ بالإنذار في المقام الأوَّل، ويدخل فيه غيرُهم مِن بابِ العموم؛ ذلك أنَّ قولَهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يفرضُ بيانَ حقيقةِ هذه المقولةِ، ونُصْحَ قائليها بما يُبَيِّنُ خطأَهُم فيها، ليرجعوا إلى أنفسِهم، ويتفكَّروا في أحوالِهم، فيعلموا أنَّ الأموالَ والأولادَ لن تقرِّبَهم إلى الله، وأنَّ الكفرَ بالرَّسول وترْك العمل الصّالحِ مِن أسباب عذابِهم، فالأَولى بهِم أنْ ينصرفوا عمّا هُم فيه إلى الإيمانِ باللهِ وعمل الصّالحات.

بلاغةُ الالتفاتِ:

خطابُ النّاسِ بطريقِ التَّلوينِ والالتفاتِ مبالغةٌ في تحقيقِ الحقِّ وتقريرِ ما سبق

كان مقتضى الظّاهرِ أن يُقالَ: (ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يَعلمونَ، وما أموالُهم ولا أولادُهم بالَّتي تقرِّبهم)، لكن النَّظم الكريم انتقلَ مِن ضَمائر الغيبةِ إلى ضَمائر الخِطاب، فقال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ﴾؛ "لأنَّ الكلامَ إذا نُقل من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ؛ كان أحسنَ تطريةً لنشاطِ السّامع، وإيقاظًا للإصغاءِ إليهِ من إجرائِه على أسلوب واحدٍ"[2]، ولما يفيدُه العدولُ إلى أسلوبِ الخِطاب مِن تنبيهِ المترفين ومن ينهجُ نهْجَهُم، وبيانِ أهميَّة الكلامِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 214، 215.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/ 14.

الموجَّه إليهم؛ ليتلقَّوه بمزيدٍ من التفكُّرِ والتدبُّر المفضي إلى فعلِ ما يدعو إليهِ واجتناب ما يُنهى عنه، يُزاد على ذلك أنَّ الكلامَ وردَ على سبيل الاستئنافِ من جهتِهِ عزَّ وعلا، وخوطِب به النّاسُ بطريقِ التَّلوينِ والالتفاتِ مبالغةً في تحقيقِ الحقِّ وتقريرِ ما سبق[1].

بلاغةُ الإسنادِ المجازيِّ:

إسنادُ فعلِ التَّقريب ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾ إلى الضَّمير العائدِ إلى الأموالِ والأولادِ مجازٌ عقليٌّ علاقتُه السَّببيَّةُ، وفي التَّعبيرِ بهِ دلالةٌ على أنَّ المترفين وأمثالَهم يعتقدون كفايةَ الأموال والأولادِ في تحقيقِ متاعِ الدُّنيا، وتحقيقِ الحُظوةِ عندَ اللّه تعالى، والأمان مِن عذابِهِ في الآخرة، وبرهانُ هذه العقيدةِ أنَّه أُسْنِدَ فِعلُ التَّقريبِ إلى الضَّمير العائدِ إليها، وكأنَّها فاعلُه الحقيقيُّ، وليست مجرَّدَ سببٍ فيه؛ لأنَّ ذلك هو ما يعتقدونه، ويؤمنون به.

نفيُ التَّقريبِ عنِ الأموالِ والأولاد أبلغُ مِن نفيهِ عنِ السَّبب

دلالةُ تعليقِ فعلِ التَّقريب بالظَّرف:

مِنَ الجائزِ أن يكونَ متعلِّقُ فعل التقريب جارًّا ومجرورًا، فيُقال: (بالَّتي تُقَرِّبُكُمْ إلَيْنا) ولكنَّ النَّظمَ الكريمَ آثرَ تعليقَه بالظَّرف، فقال: ﴿تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا﴾؛ لأنَّ التَّقريبَ هُنا مَجازٌ في التَّشْريفِ والكَرامَةِ، وليس تَقْريبَ مَكانٍ[2].

التَّقْريبُ مَجازٌ في التَّشْريفِ والكَرامَةِ، وليس تَقْريبَ مَكانٍ

لطيفةُ الإضافةِ إلى ضميرِ العظمةِ:

أُضيف الظَّرفُ المُقَيَّدُ بهِ فعلُ التَّقريب إلى ضمير الحقِّ بصيغةِ التَّعظيم، في قولِهِ تعالى: ﴿عِندَنَا﴾؛ لتعظيمِ المكانةِ والمنزلة الَّتي يَرقى إليها مَنْ قَرَّبَهُ اللّهُ تعالى، وللإشارةِ إلى أنَّها لا تُنال إلّا بشريفِ الأعمال، وأطهرِ الأقوال، وليس بالتَّفاخُرِ بالأولاد والأموال، وفي الإضافةِ أيضًا تحسيرٌ للمُترفين ومَنْ ينهجُ نهجهم؛

تعظيمُ العنديَّة والإشارةُ إلى أنَّها لا تُنال إلّا بشريف الأعمال والأقوال

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 215.

لفقدِهم هذهِ المكانةَ بسبب كفرِهم باللّه ورسوله، وتعزُّزِهم بأموالِهم وأولادِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿زُلْفَىٰٓ﴾:

﴿زُلْفَىٰٓ﴾: اسمٌ لِلقُربِ، مِثلَ: الرُّجعَى، وهوَ: مَفعولٌ مُطلَقٌ، نائِبٌ عَنِ المَصدَرِ، أي: تُقَرِّبُكُم تقريبًا، ونظيرُهُ قَولُهُ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17]، وفي التَّعبيرِ بِهِ تأكيدٌ وتقويةٌ لنفي كون الأموالِ والأولادِ سببًا في حصول التقريبِ بأيِّ شكلٍ من الأشكال، وبأيِّ صورةٍ مِنَ الصّور، والمعنى: وما جماعةُ أموالِكم وأولادِكم بالجماعةِ الَّتي تُقرِّبكم عندنا قُربةً[1].

تأكيدُ نفي كونِ الأموالِ والأولاد سببًا في القُربى عند الله

دلالةُ الاستثناءِ في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ﴾:

﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ﴾ حرفُ استثناءٍ، وقوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ هو المُستثنى، ولا يوجد مُستثنًى مِنهُ، ما يعني: أنَّ الاستثناءَ مُفَرَّغٌ أو منقَطِعٌ، ويمكنُ أن يكونَ الضَّميرُ المنصوب في: ﴿تُقَرِّبُكُمۡ﴾ هو المُستثنى منه، فيكونَ الاستثناءُ متَّصلًا[2]، وأيًّا كان نوعُ الاستثناء؛ ففي استعمال أداةِ الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ إثارةٌ للمخاطَبِ ولفتٌ لانتباهِهِ إلى ما يأتي بعد حرفِ الاستثناء، لأهمّيَّته البالغة، ولأنَّه في العادة يكون مُخالِفًا لِما قبلَهُ، ما يدعو النُّفوسَ لترقُّبه والتَّطَلُّع إليه.

الإيمانُ والعملُ الصالح هما سببُ القربى عند الله تعالى

فائدةُ استعمال ﴿مَنۡ﴾ اسمًا موصولًا:

﴿مَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ اسمٌ موصولٌ عامٌّ يمكن إعرابُهُ مستثنًى مِن المفعول في ﴿تُقَرِّبُكُمۡ﴾، ويجوزُ أن يكونَ مبتدأً وما بعده الخبرُ، وقولُه: ﴿ءَامَنَ﴾ صلةُ الموصولِ، وفي إيثار التَّعبيرِ به دلالةٌ على أنَّ معيارَ الإيمان وعمل الصّالحاتِ يشمَلُ الخَلْقَ أجمعين،

ترغيبُ عمومِ الناس المؤمنين وغيرهم إلى الإيمان والعملِ الصّالح

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 586.

ويدخل فيهم مَنْ آمَن، وأصلحَ، وتخلَّى عن الغرور والافتخارِ مِنَ الكُفّار والمترفين، ولا يخفى ما فيه مِنَ التَّرغيبِ والتَّبشير.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإيمان وصوغِهِ ماضيًا:

إذا تغلغَلَ الإيمانُ في القُلوب؛ اطمأنَّتِ الجوارحُ واستقرَّت النُّفوس

عبَّر النَّظمُ بلفظِ الإيمان صِلةً للاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ دون الإسلام؛ لشمولِ الإيمان معنى الإسلام مضافًا إليه التَّصديقُ الذي لا يُخامرُه شكٌّ، والثَّباتُ الذي لا يناقضُه تزعزُعٌ، ما يعني: أنَّ أحدَ أسباب الحُظوةِ عند اللهِ والفوز بجنَّته في الآخرةِ هو الإيمانُ الحقُّ، الذي يُعَدُّ العملُ الصالحُ بُرهانًا عليه، وليس الإيمان بالانتساب، وأوثرَ التَّعبيرُ بفعل الإيمانِ ماضيًا؛ لدلالتِهِ على تحقُّق الإيمانِ وتغلغُلِهِ في النُّفوس، ولأنَّه مقدِّمةُ العملِ الصّالح.

فائدةُ حذفِ متعلِّقِ الفعل:

عمومُ كلِّ أركانِ الإيمان وجميعِ ما يُبَرْهِنُ عليه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ حذفَ متعلِّق فعلِ الإيمان ﴿ءَامَنَ﴾؛ لِما يُفيده الحذفُ من عموم الفعلِ وشمولِهِ الإيمانَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليوم الآخر والقدرِ خيرِهِ وشرِّهِ، وكلَّ ما يُبرهِنُ على رسوخِ هذه المعاني في القلوبِ، واستقرارِها في النُّفوس.

نكتةُ اختيارِ فعل ﴿وَعَمِلَ﴾ مادَّة وصيغةً:

شرطُ العملِ أن يكون عن قصدٍ وغاية

العَمَلُ هو: كلُّ فعلٍ يكون بقصدٍ، وهو أخصُّ مِنَ الفعل؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسب إلى الحيوانات التي يقعُ منها بغير قصدٍ، وقد يُنسَب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك[1]، وفي التَّعبيرِ بفعلِ العملِ في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ دلالةٌ على أنَّ العملَ المُقَرِّبَ إلى اللهِ هو العملُ الَّذي يفعلُهُ الإنسانُ بقصد القربى والنَّجاة مِنَ العذابِ، وليس الَّذي يقومُ بهِ لغرضٍ آخر.

شرطُ العملِ الصّالحِ سلامةُ القصدِ وحُسنُ المتابعة

بلاغةُ ذكرِ لفظ ﴿صَٰلِحًا﴾ بزنةِ (فاعل):

في التَّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿صَٰلِحًا﴾ دلالةٌ على أنَّ العملَ المُراد هو

(1) الراغب: مفردات القرآن: (عمل).

الذي يكون لوجهِ الله تعالى، ووفق سُنَّةِ رسولِه ﷺ، وأوثِرَ صوغُه على وزنِ فاعل؛ للإشارةِ إلى كونِهِ ذا أثرٍ كبيرٍ في صاحبه وذا أثرٍ كبير في غيره؛ لأنَّهُ يدفعُ صاحبَه إلى مزيد مِنَ الأعمال المرضية، ويدفع غيرَهُ إلى الاقتداءِ به.

نكتةُ تقديم ذكرِ الإيمان على العمل:

تقديمُ الأصلِ على الثَّمرةِ مقتضى الظاهر والحال

قَدَّم النَّظمُ الكريمُ فعلَ الإيمان على فعل العملِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّ الإيمانَ شرطٌ رئيسٌ في صحَّة العمل وشرطٌ رئيسٌ في قبوله، فلا يُقبل عملٌ إلّا إذا كان صاحبُه مؤمنًا حقَّ الإيمان، كما أنَّ العملَ الصالحَ برهانٌ على تحقُّقِ الإيمانِ وتغلغلِهِ في نفس العامل[1]، والبرهانُ يأتي ثانيًا، ولا يأتي أوَّلًا.

نوعُ الفاءِ ودلالتها:

الإيمانُ والعملُ الصالح شرطا الجزاءِ الأحسن

أفادتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ ترتُّبَ ما بعدَها على ما قبلَها؛ لوقوعِها في جواب الشَّرط الذي تضمَّنه اسمُ الموصولِ الواقع بعد حرفِ الاستثناءِ في جملة: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، وهي تدلُّ على أنَّ الجزاءَ المذكورَ مُرتَّبٌ على الإيمانِ والعملِ الصّالح ترتُّبَ المُسَبَّبِ على السَّبب، ولن يحصلَ بغيرهما مِنَ الأموال والأولاد، مهما كانوا ومهما بلغوا.

مرجعُ اسمِ الإشارة ودلالته:

التَّنويهُ بشأنِ المؤمنين وبيان عُلوِّ رُتْبتهم وبُعْدِ منزلتِهم في الفضْلِ

اسمُ الإشارة (أُوْلَٰٓئِكَ) يرجع إلى ﴿مَنْ﴾، وهمُ الموصوفونَ بالجمع بين الإيمان والعملِ الصالح، والجمع باعتبارِ معناهُ، كما أنَّ الإفراد في الفعلين: ﴿ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ باعتبارِ لفظه[2]، وجيءَ باسم الإشارَةِ (أولَئِكَ) في الإخبارِ عَن مصيرِ ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ للتَّنويهِ بِشَأنِهِم والتَّنبيهِ عَلى أَنَّهُم جَديرونَ بِما يَرِدُ بَعدَه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 515.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136.

مِن أَجلِ تِلكَ الأَوصافِ الَّتي تَقَدَّمَت عَليهِ[1]، وما فيه مِن مَعنى البُعد؛ فللإيذانِ بعلوِّ رتبتهم وبُعد منزلتِهم في الفضلِ، أي: فأولئكَ المنعوتونَ بالإيمانِ والعمل الصّالح لَهُم جَزاءُ الضِّعْفِ[2]، ولا يكون في منزلتِهم العاليةِ الرَّفيعةِ إلّا مَن سلَكَ مَسْلَكَهم، واقتفى أثرَهُم.

نوعُ اللام ودلالتها:

اللامُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ جَزَآءُ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد الاختصاصَ، وفي استعمالِه دلالةٌ على أنَّ الجزاءَ المذكورَ مخصَّصٌ لهم، فلا يشاركُهم فيه أحدٌ، ولا يخفى ما فيه مِنَ التَّشريف والتَّرغيب.

فائدةُ استعمالِ مفردة الجزاء:

بيانُ قيمةِ العدلِ المطلق بذكرِ جزاءِ المؤمنين تصريحًا والمترفين تعريضًا

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الجزاء في بيانِ الأجر الأخرويِّ لمن آمن وعملَ صالحًا، والجزاءُ موضوعٌ للمكافأة والمقابلةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَنْ آمنَ وعمل صالحًا سينالُ الجزاءَ الذي تفضَّل اللّهُ ببيانِه عن جدارةٍ واستحقاقٍ، ويُفهم منه أنَّ مَنْ أعرضَ عن الإيمانِ وصالح العمل، وتفاخرَ بالأموالِ والأولاد وغيرِ ذلك سينال عقابَهُ عن وفاقٍ واستحقاقٍ؛ إذ الجَزاء يكون على الخيرِ والشَّرِّ، والإحسان والإساءةِ، ففيه تعريضٌ بالمترفينَ ومَن على منوالِهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم: 31]، فدلَّ هذا الاستعمالُ على قيمةِ العدل الإلهيِّ في الآخرةِ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلضِّعْفِ﴾:

جزاءُ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ محضُ فضلٍ لا تُدرَكُ كثرتُهُ وقيمتُهُ

(أل) في لفظِ ﴿ٱلضِّعْفِ﴾ لتعريفِ العهدِ، والمرادُ: الضِّعفُ الذي يعهدُهُ الناسُ، ويعرفونَهُ، وهو المُكَرَّرُ المُضاعَفُ، فيصدقُ بالمكرَّر مرَّةً وأكثر، كما بيَّنه قولُه تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 217.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 136، والآلوسي: روح المعاني: 11/ 323.

سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البَقَرَة: 261][1]، والمعنى: يأخذونَ جزاءَهُم مضاعَفًا في نفسِهِ، مِن عشرةِ أمثالٍ إلى ما لا نهايةَ لَهُ[2]، ما يعني: أنَّه لا يستطيع أحدٌ إحصاءَ جزاءِ الإيمانِ والعملِ الصالح.

دلالةُ الإضافة في ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾:

إضافةُ لفظِ ﴿جَزَآءُ﴾ إلى لفظِ ﴿ٱلضِّعۡفِ﴾ من إضافةِ المصدرِ إلى مفعوله، وأصْلُهُ: فأولئك لهم أن يُجازَوا الضِّعفَ، ثمَّ جزاءَ الضِّعف، ثمَّ جزاءَ الضِّعف[3]، وهي إضافةٌ بَيانيَّةٌ، أي: مبيِّنة لنوع الجزاءِ ومقداره، والمعنى: يجزيهم اللّهُ الجَزاء الَّذي هوَ المُضاعَفَةُ لأَعمالِهِم، أَي: لِما تَسْتَحِقُّهُ[4].

الإضافةُ مبيِّنةٌ لنوعِ الجزاءِ ومقداره

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

قرأ رَوْيْسٌ ﴿جَزَآءً﴾ بالنَّصْبِ عَلَى الحالِ مَعَ التَّنوينِ وكَسرِهِ وصلًا ورَفْعِ ﴿ٱلضِّعۡفُ﴾ بالابتِداءِ، والتَّقديرُ: لَهُمُ الضِّعْفُ جَزاءً، وقَرَأَ الباقونَ بالرَّفعِ مِن غَيرِ تَنوينٍ وخَفضِ ﴿ٱلضِّعۡفِ﴾ بالإضافَةِ[5]، والقراءاتُ كلُّها تدلُّ دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ جزاء مَنْ آمنَ وعملَ صالحًا - وتركَ التَّفاخرَ بمتاع الدُّنيا الزائلِ - لا يعلمُ مقدارَهُ إلّا اللّهُ، ولا يستطيع أن يُحْصيَهُ أحدٌ غيرُه، وفيه تحذيرٌ للمترفينَ وغيرِهم مِنَ الاستمرار على ما هم فيهِ، وترغيبٌ للجميع في الإيمانِ والعمل الصّالحِ.

تشتركُ القراءاتُ في معنًى واحدٍ وإن اختلفت ألفاظُها

نوعُ (الباء) ودلالتها:

الباءُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ تَحْتَمِلُ السَّبَبيَّةَ، فَتَكونُ دَليلًا عَلى ما هوَ المُضاعَفُ، وهوَ ما يُناسِبُ السَّبَبَ مِنَ الصّالِحاتِ، كَقَولِهِ

السَّببيَّة والعِوض كلاهما يدلّان على أنَّ العملَ ورَّث الجزاءَ الأحسن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 217.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 516.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 586.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 217.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 351.

تَعالَى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرَّحمَن: 60]، وتَحْتَمِلُ العِوَضَ، فَيكونُ (ما عَمِلوا) هوَ المُجازَى عَليهِ، كَما تَقولُ: جَزَيْتُهُ بِألفٍ، فَلا تَقْديرَ في قَولِهِ: جَزاءُ الضِّعْفِ[1]، والمعنيانِ المذكورانِ للباءِ يدلّانِ على أنَّ العملَ هو الَّذي ورَّثهم الجزاءَ الأحسن في الآخرةِ.

فائدةُ استعمالِ أداة (ما):

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ تحتملُ أن تكونَ موصوليَّةً، أي: بالذي عملوا، وتحتملُ أن تكون مصدريَّةً، أي: بأعمالِهم، واختيرَتْ (ما)؛ لأنَّها تدلُّ بمعناها ومبناها المُنتهي بألف المدِّ على أنَّ الجزاء بالأضعاف سيشمل كلَّ الأعمالِ الصّالحة التي عملوها، ولن يُستثنى مِنْ تلك الأعمالِ شيءٌ، مهما قلَّ أو كثُر، فهي لاشتمالِ جميعِ الأعمال الصّالحة واستغراقِها.

استغراقُ الأعمالِ الصالحة الظّاهر منها والخفي

علَّةُ استعمالِ مفردة العملِ مادةً وصيغة:

استُعمِلَ فعلُ ﴿عَمِلُواْ﴾ الموضوع لِما فُعِل بِقَصْدٍ للدَّلالة على أنَّ الإيمانَ كان دافعَهم إلى العمل، مهما كانت المشقَّةُ المصاحبةُ له، أو المترتِّبةُ عليه، ما يعني: أنَّ أعمالَهم ثابتةٌ محفوظةٌ بأساسٍ راسخ متين مِنَ الإيمان[2]، وأوثِرَ التَّعبيرُ به ماضيًا؛ لدلالتِهِ على تحقُّقِ حصولِها وتأكُّدِ قيامِهم بها من غير شكٍّ أو ريب، وأنَّ مجازاتَهُم عليها بالأضعاف جزاءٌ مُسْتَحَقٌّ مِنَ اللهِ ربِّ العالمين.

الأعمالُ المقبولةُ هي المبنيَّةُ على الإيمان الرّاسخ

نوعُ (الواو) ودلالتها:

(الواو) في قوله: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ يمكن أن تكونَ لعطفِ ما بعدَها على جملة: ﴿لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾، وهي تدلُّ على نوعٍ آخر مِنَ النَّعيم الذي يُجزَونَهُ بسببِ الإيمان والعمل الصّالح، ويمكنُ أن تكونَ الواوُ للحال، والجملةُ بعدها حاليَّةٌ، جيءَ بها لبيان الطُّمأنينة الدائمة والسَّعادة الأبديَّة التي يَحيَونَها في الآخرةِ.

العطفُ والحالُ تُبيِّنان نعيمَ المآل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 217، 218.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 516.

نكتةُ تقديم المُسندِ إليهِ على المُسند:

قُدِّمَ المُسندُ إليه: (هُمْ) على الخبر المُشْتَقِّ: ﴿ءَامِنُونَ﴾؛ لتأكيدِ الطُّمأنينة والأمنِ الذي ينْعَمُ بهِ الَّذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ في غُرَفِ الجنّات، والذي يحصلُ لَهُم به نوعانِ مِنَ النَّعيم: أحدُهما: حسّيٌّ، ويتمثَّل في مضاعفةِ الأجر والثَّواب إلى ما لا نهايةَ، والآخرُ: نفسيٌّ، ويتمثَّل في الطُّمأنينة والأمنِ الذي يشعرُ به مَن يُقيم في هذه الغُرف، وبحصولهما يبلغ نعيمُهم ذِرْوَتَه.

تأكيدُ تَنَعُّمِ المُؤمنين العاملين بالنَّعيم النَّفسيِّ والحِسّيِّ

بلاغةُ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِى﴾:

استُعمِلَ حرفُ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المؤمنينَ العاملين منغمسونَ في نَعيم الجنَّة انغماسًا يدلُّ على الشَّرف والرِّفعة، حيث تُلْقي الإقامةُ في منازلِ الجنَّة وغُرُفاتها في نفوسِهم الأمنَ والطُّمأنينة، الَّتي تزيد نعيمَهم نعيمًا[1]، ما مِن شأنهِ أن يدفَعَ المُتلقّين إلى الإيمانِ والعملِ الصّالح؛ من أجلِ الفوزِ بالإقامة في هذه الغُرف التي يبلُغُ فيها النَّعيمُ ما لا مزيدَ عَليه، والظَّرفيَّةُ هنا غيبيَّةٌ، والمعنى تقريبيٌّ لبيانِ عظيمِ الأجر، والانغماس في تلك الملذّات.

تصويرُ نعيمِ الجنَّة تقريبيٌّ والحقيقيُّ لا يتصوَّره عقلٌ

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ وجمعها:

﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ جَمعٌ مفرَدُهُ غُرفَة، والغُرفَةُ هيَ: البَيتُ المُعتَلي، يُصعَدُ إلَيهِ بدَرَجٍ، وهوَ أَعَزُّ مَنزِلًا مِنَ البَيتِ الأَرضيِّ، ما يدلُّ على أنَّ النّازل في غرفاتِ الجنَّةِ يتمتَّع بجمال المَنظر وشمول المرأى[2]، وفي التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ جمعًا دلالةٌ على كثرَتِها وتنوُّعها أو اختلافها.

النّازلُ في غُرفات الجنَّةِ يتمتَّع بجمال المَنظر وشُمول المَرأى

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الخبر:

قَدَّمَ النَّظم الكريمُ الجارَّ والمجرورَ في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 218.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 218.

التَّعجيلُ ببُشْرى دخولِ المؤمنين الجنَّةَ وسكنِهم غُرَفَها

على الخبر ﴿ءَامِنُونَ﴾؛ لتعجيل البُشرى بدخولِ المؤمنين الجنَّةَ، وسكنِهم غُرَفَها ومنازلَها التي تمتازُ بالخصوصيَّة، ولها من فخامَة المنظر وسَعة مساحةِ الرُّؤية ما لا يُقادَر قدرُه، ولا تُحيطُ العبارةُ بوصفه.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

قراءةُ الإفرادِ دالَّةٌ على الجنسِ وهي متوافقةٌ مع قراءة الجمع

قَرَأَ حَمْزَةُ: ﴿فِي ٱلْغُرْفَتِ﴾ بإسكانِ الرّاءِ من غيرِ أَلِفٍ عَلَى التَّوحيدِ، وقَرَأَ الباقونَ بِضَمِّها وفَتحِها وسُكونِها مَعَ الأَلِفِ عَلَى الجَمعِ[1]، وقراءةُ الإفرادِ تدلُّ على الجنس، وقراءاتُ الجمعِ تدلُّ على الكثرة، وفي القراءاتِ كلِّها دلالةٌ على أنَّ المؤمنَ ليس له في الجنَّة غرفةٌ واحدة أو منزلٌ واحدٌ فحسب، بل له غرفٌ متنوِّعةٌ ومنازلُ كثيرةٌ.

دلالةُ استعمالِ مفردة ﴿ءَامِنُونَ﴾:

الأمنُ في الآخرة من زوالِ النِّعَمِ هو كمالُ السَّعادة

جاء استعمالُ مفردة: ﴿ءَامِنُونَ﴾ لتأكيدِ بلوغِ نعيمِ المؤمنين العاملين في الجنَّة أقصى درجاته؛ لخُلوِّه مِنَ القلق والخوفِ بصفةٍ عامَّةٍ، والقلق والخوف مِن انقطاع النَّعيم أو توقُّفه بصفة خاصَّة، فَإِنَّ مَنْ تنقطعُ عنه النِّعمةُ لا يكون آمنًا[2]، وهو تمامُ السَّعادة، كما أنَّ الإخبارَ بأمنِهم فيها يدفع توهُّمَ ما يكونُ في الدُّنيا من شأنِ الغرفات فيها، عند تطاول الزَّمان، وطروِّ ما يُؤثِّر في تلك الأبنيةِ مِنَ الهدم والسُّقوط، وتحوُّل النّاس من مكانٍ لآخر، فإنَّ كلَّ ما قد يطرأُ على الذِّهن من قياسِ نعيم الجنَّة على نعيم الدُّنيا، فمدفوعٌ بقولِه تعالى: ﴿ءَامِنُونَ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الفاعل:

أوثِرَ التَّعبيرُ عن الخبرِ بـ ﴿ءَامِنُونَ﴾ اسمًا؛ لِما يُفيده التَّعبيرُ

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 351، والزمخشري، الكشاف: 3/ 586، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 555.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 209.

بالاسم من ثبوتِ النَّعيم ودوامِهِ على سبيل التَّأبيدِ، فإنَّ مَن تنقطعُ عنْهُ النِّعمة لا يكون آمنًا[1]، فأمانُ أهلِ الجنَّة باقٍ - لا ينقطع - بقاءَ الجنَّةِ ونعيمها.

نكتةُ تقديمِ الإخبارِ بجزاء الضعف:

جـزاءُ الضِّعف هـو الـجـزاءُ العامُّ وما بعده فـصـورةٌ من صوره

قُدِّمت جملةُ ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ على جملةِ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾؛ لأنَّ زيادةَ الأجرِ ومضاعفته إلى ما لا نهاية سببٌ في جدارتِهم بدخولِ غُرَفِ الجنَّة والتَّمتُّع بما فيها مِن نعيمٍ حسّيٍّ ونفسيٍّ، والسَّببُ يُقدَّم على المسبَّبِ؛ لما فيه مِنَ الإثارةِ إلى ترقُّب الجزاءِ والتطلُّع إليه، فإذا وردَ؛ ثبتَ في النَّفس، وتمكَّنَ منها، وأثارها إلى الرُّجوع للعامل الرَّئيس في مضاعفة الأجر المُفضي إلى غُرَفِ الجنَّة، ومِن ثمَّ تقبل النُّفوس على الإيمان والعمل الصالح، وتتخلَّى عن التَّفاخر بالأموال والأولادِ وما يجري مجراهما، وهو القصدُ الأعظمُ في الآية الكريمة، كما أنَّ التَّقديمَ مِن باب ذكرِ الجزاءِ العامِّ قبل ذكرِ صورةٍ من صورهِ، ومثالٍ من أمثلتهِ.

بلاغةُ الجناس في الآية:

مَـنْ آمـن في الدُّنيا؛ أَمِن في الآخـرة جـزاءَ مضاعفًا

بين فعل ﴿ءَامَنَ﴾ والاسم المشتقِّ ﴿ءَامِنُونَ﴾ جناسٌ يدلُّ على أنَّ الإيمانَ في الدُّنيا سببٌ في الأمن والنَّعيم في الآخرة، وأنَّ الجزاءَ عند الله تعالى مِن جنسِ العملِ، فمَن آمنَ في الدُّنيا؛ أَمِنَ، وتنعَّم في الآخرة، ومَنْ كفرَ في الدُّنيا، واطمأنَّ إلى أموالِهِ وأولادِه؛ خافَ، وفَزِعَ، وعُذِّبَ في الآخرة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزُّلفى والقُربى:

الـزُّلـفـى اقـترابٌ مـع حـرصٍ، والقُربى أعمُّ من ذلك

الزُّلفى تدلُّ على انْدِفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلَى شَيءٍ، وسُمِّيَت مُزدَلِفَةَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 209.

بِمَكَّةَ، لاقترابِ النّاسِ إلَى مِنًى بَعْدَ الإفاضَةِ مِن عَرَفاتٍ، ويقالُ لِفُلانٍ عِندَ فُلانٍ زُلفى، ومعناه: التَّقريبُ السَّهل اليسير[1]، والقُربى تدلُّ عَلَى خِلافِ البُعدِ، والقُربَةُ والقُربَى: القَرابَةُ، ويُستَعْمَلُ في المكان والزَّمان والنِّسبة والحُظوة والرِّعاية والقدرة[2]، ولمّا كان المترفونَ يعتقدونَ أنَّ كثرةَ أموالِهم وأولادِهم برهانٌ على حبِّ اللّهِ تعالى لهم وتقريبهم عنده؛ أوثرَ التَّعبيرُ بـ ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ لنفي اعتقادِهم بداهةَ الأمرِ وسهولتَهُ، ولبيانِ أنَّ عدم اختلافِ حالِهم في الآخرةِ عن حالِهم في الدُّنيا ليس مِنَ المسلَّمات التي لا جدالَ فيها ولا نقاشَ حَولَها، كما يظنّون.

الغُرفةُ والحجرةُ:

الغُرفةُ تمتازُ بجمالِ المنظرِ وشمولِ المرأى، والحُجرة تمنعُ مِنْ كشف ما بداخِلها

الغُرفَةُ: هيَ البَيتُ المُعتَلي، يُصعَدُ إلَيهِ بِدَرَجٍ، والجمعُ غُرَفٌ وغُرُفات بضمِّ الرّاءِ وفتحِها وسكونِها، وهي أَعَزُّ مَنْزِلًا مِنَ البَيْتِ الأَرضيِّ، وتمتازُ بجمال المنظَرِ، وشمولِ المَرْأى[3]، أمّا الحُجرَةُ مِنَ الأَبنيَةِ؛ فهي مَعروفَةٌ، مأخوذةٌ مِنَ الحِجر، بمعنى: المَنعِ والإحاطَة عَلَى الشَّيءِ، وتمنعُ مَن بداخلها مِنْ أن يُرى، أو يطَّلعَ عليه غيرُهُ[4]، وليس لها من جمالِ المنظرِ الخارجيِّ، وشمولِ المَرْأى ما للغُرف العليَّة، ولمّا كان القصدُ بيانَ منزلةِ مَنْ آمنَ وعملَ صالحًا، وتركَ التَّفاخُر بالأموال والأولاد؛ ناسبَ التَّعبير بـ ﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾؛ لما تمتازُ به مِنَ الفخامة والجمال والدِّلالة على تكريم نزلائِها والحفاوةِ بهم؛ بسببِ إيمانِهم وعملِهم الصّالحِ، وليس لكثرة أموالِهم وأولادِهم.

الأمنُ والسَّلامةُ:

الأمنُ طمأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخوفِ وسلامةُ التَّعرّي من الآفاتِ الظاهرة والباطنة

الأمنُ: طمأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخوفِ[5]، ومعناه المحوريُّ: وثاقةٌ

(1) الراغب، مفردات القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زلف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (قرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (غرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (حجر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن، والحموي، المصباح المنير: (أمن).

في الباطن، كأنَّ الآمِنَ تمكَّن في حِصْن، أو امتلأَ قلبُهُ امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئِنُهُ، قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ۝٤﴾ [قريش: 4][1]، والسَّلامة تدلُّ على الصِّحَّةِ والعافيَةِ والتَّعرّي مِنَ الآفات الظاهرة والباطنةِ، قال تعالى في الباطن: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 89]، وقال في الظاهر: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: 71][2]، ولأنَّ غُرفاتِ الجنَّة تُعَدُّ تكريمًا وتشريفًا لمن آمنَ وعَمِل صالحًا، ولم تفتنْهُ مظاهرُ الدُّنيا الخدّاعةُ وزينتُها الزائفةُ مِنَ الأموالِ والأولادِ وغيرها؛ كانَ التَّعبيرُ بـ(الأمن) أنسبَ؛ لدلالتهِ على السَّلامة الممزوجةِ بالطُّمأنينةِ والسَّعادة الأبديَّة، بخلاف السَّلامة التي قد لا يحصل معها شيءٌ مِنَ الاطمِئنان، ممّا يُنافي التَّشريفَ والتَّكريم.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أمن).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (سلم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»